

ابرام تيرتز بُخَنْتَشْ

التقيته اليوم من جديد في المصبغة . تظاهر بأنه لم ينتبه لوجودي ، وبالانشغال التام بغسيله الوسخ .

ظهرت اولاً الشراشف ، - وهم يستعملونها لغايات صحية . وكانت كلمة « القدمان » مطرزة باحرف صغيرة على احد طرفي كل شرشف منها . وهم يلجأون الى ذلك من قبيل الاحتياط ، لئلا يلمس المرء بشفتيه بقعة كانت قدماه قد حفنا عليها ولوثناها في الليلة السابقة .

وهم على الاساس ذاته يعتبرون رفسة القدم عملاً اكثر تحقيراً بكثير من لكمة اليد ، وليس ذلك لمجرد ان اذى القدم اشد . بل لعل في هذا التمييز دلالة على ان المسيحية ما تزال موجودة صامدة : فلا شك ان القدم هي اكثر اثماً من سائر اجزاء الجسد الاخرى ، لسبب بسيط ، هو انها ابعد هذه الاجزاء عن السماء . وليست نظرهم اسوأ سوى الى الاعضاء الجنسية وحدها ، وهذا مدعاة لبعض الاستغراب .

وقلتها بيوت المخدات ، وفي وسطها بقع داكنة . ثم المناشف ، التي تتسخ ، على عكس بيوت المخدات ، عند الاطراف اسرع منها في الوسط ؛ واخيراً اكوام الملابس الداخلية الخاصة من كل لون .

وسرعان ما شرع يقذف بحاجياته بسرعة فائقة جعلت من المتعذر عليّ ان اتفحصها بامعان . لعله اراد ان يحتفظ بسر ما ، او ربما كان ، ككل الناس ، يستحي من عرض اشياء متعلقة علاقة غير مباشرة بساقيه .

لكن بدا مريباً لي انه يجلب للمصبغة ملابس مهترئة . فالحُذْبُ نظفاء في العادة . فهم يتخوفون من ان تزيد ملابسهم في الاشتمزاز الذي يجتذبه اصله . لكن هذا الاحدب كان عديم الترتيب ، على عكس ما يتوقع ، وكأنه ليس باحدب مطلقاً .

بل ان الموظفة في المصبغة ، وهي امرأة تعودت على كل شيء ، وليست الآثار التي تخلفها العصارات النادرة جداً بالامر الغريب عليها ، لم تستطع ان تتمالك نفسها وقالت له بصوت مرتفع لحد ما : « ما هذا ، ايها المواطن ؟ تدفع بها في وجهي ؟ ان كنت لا تعرف

كيف تسلمي اياها بترتيب ، فاغسلها بنفسك ! »
ودفع المبلغ دون ان ينبس ببنت شفة وولى مسرع الخطى . ولم الحق به كي لا
اثير الانتباه .

في البيت كان كل شيء على عادته . ما كدت ادخل حتى ظهرت فيرونيكا . واقترحت
عليّ ، وهي تحفض جفניה حياء ، ان نتناول العشاء معا . ولم يكن بوسعي ان ارفض
دعوة هذه الفتاة : فهي الوحيدة في هذه الدار التي تعاملني معاملة حسنة . من المؤسف ان
يكون حنوها قائما على اساس الجاذب الجنسي . وكان هذا واضحا تمام الوضوح بعدما
حدث اليوم .

سألت فيرونيكا : « كيف حال كوستريتسكايا ؟ » ، محاولا ان اوجه الحديث نحو
اخصامنا المشتركين .

« آه ، يا اندريه كازيميروفيتش ، لقد كانت تهدد وتوعد من جديد » .
« ما خطبها ؟ »

« كالعادة . النور المتروك في غرفة الحمام ، وارضها المطرطشة كلها بالماء . لقد اعلنت
كوستريتسكايا انها ستتشكى لمدير البناية » .

اثار هذا النبأ سخطي . اني استعمل المرحاض اقل مما يستعمله اي من الآخرين . ولا
اذهب الى المطبخ الا فيما ندر . الا يحق لي ان استعيز عن المطبخ باستعمال الحمام ؟
اجبت بخشونة : « دعها تتشكى . انها ذاتها تصرف كيلوات و كيلوات من النور .
واولادها كسروا لي قنينتي . فليات مدير البناية » .

لكني ادركت ان اللجوء الى الموظفين للتدخل يتضمن مخاطرة كبيرة من جانبي .
فلماذا الفت النظر اليّ دونما حاجة ؟

قالت فيرونيكا : « خفف من غضبك ، يا اندريه كازيميروفيتش . سأسوي انا سوء
التفاهم هذا . خفف من غضبك ، ارجوك » .

« نعم ، نعم ، يدها لتمس جبينني ، لكنني تمكنت من التملص . » لا ، لا ، انا بصحة جيدة ،
وليس من حمى . فلنأكل » .

كان الطعام على المائدة ، ينبعث منه البخار والرائحة الحبيثة . لقد ادهشتني على الدوام
النزعة السادية في النشاطات المطبخية . فراخ الغد يأكلونها اليوم بشكل سائل . احشاء
الخنازير يحشونها بلحمها هي . امعاء تبتلع ذاتها ، وقد صب عليها سقط الدجاج - اليس
هذا ، في الواقع ، ما هو البيض المقلبي والمقانيق ؟

اشد قسوة من هذا بكثير ، الطريقة التي يعاملون بها القمح : انهم يقطفونه ، ويطرقونه ،

ويجرشونه غبارا . هل من غرابة اذا ان يحيم « الدقيق » و « دق » العنوق من جذر واحد ؟

« تناول طعامك ، يا اندريه كازيميروفيتش » ، قالت فيرونيكا متوسلة . « لا تزعج نفسك ، ارجوك . سأتحمل انا الوزر كله » .

وماذا اذا اعدوا كائنا بشريا بالشكل ذاقه ؟ اذا اخذوا شخصا ما ، مهندسا او مؤلفا ، وحشوه بدماعه هو ، وشكّوا بنفسجة في شق مجعد من شقي انفه ، وقدموه لاقترانه للعشاء ؟ لا ، ان آلام المسيح وجون هص وستينكا رازين لهي اشياء لا تذكر اذا قورنت بالعذاب الذي تتعرض اليه سمكة يجذبونها بعنف من المياه على صنارة . ان اولئك كانوا ، على الاقل ، يعرفون لماذا حدث كل ما حدث .

وسألت فيرونيكا ، وهي تدخل الغرفة حاملة غلاية : « قل لي ، يا اندريه كازيميروفيتش ، اتشعر بالوحشة لحد كبير ؟ » وكنت ، فور خروجها من الغرفة لتجلب الغلاية ، قد افرغت صحنني بين طيات صحيفة .

« هل كان لديك اصدقاء ما ؟ » - وضعت سكرا - « او اطفال ؟ » - ملقعة اخرى من السكر - « او امرأة كنت تحبها ؟ » - وراحت تحرك وتحرك .

كان واضحا من كل الظواهر ان فيرونيكا مضطربة .

شرعت اجيبها بجذر : « انت بديلي عن الاصدقاء جميعا . اما عن النساء ، فبوسعك ان تري بنفسك : اني متقدم في السن واحذب » . وكررت ، بعناد وثبات : « متقدم في السن واحذب » .

كان قصدي في الحقيقة ان اقطع دابر اعترافها بالحب : فما حاجتي له ، والحياة بدونه صعبة بما فيه الكفاية ؟ اتستحق اثاره اهتمام شديد بي انا لدى فتاة عزباء ، المخاطرة بحلفنا ضد جيراننا الحاقدين ؟

كنت على استعداد ، كما اتجنب المشاكل ، لان اظاهر باني سكير مدمن . او مجرم . او ربما ، وهو افضل ، مختل عقليا ، او شاذ جنسيا . لكنني كنت اتخوف : فقد تضيي علي كل صفة من هذه الصفات في نظر صديقي هالة من الاخطار والاسرار .

لم يبق لي الا ان اشد على حذبي وعمرتي ومرتي الزهيد ، ووظيفتي التافهة كمحاسب ، التي تستهلك جانبا كبيرا من وقتي ، وان اصر على ان شخصا مثلي ، احذب ، لا يمكن ان تناسبه غير امرأة حذباء ، في حين ان المرأة الطبيعية المحيلة تحتاج الى رجل متناسق الاجزاء والتركيب .

قالت فيرونيكا بعزم : « لا ، انت نبيل جدا . يخيل اليك انك سقيم عاجز وتخشى

ان تكون عبثا . لا تظن ان القضية قضية شفقة من جهتي . اني ببساطة احب الصبير ،
وانت تشبه الصبير . انظر كم منها قد نثرتها تنمو على عتبة شباكك ! »
ولست اصابعها الدافئة يدي . وانتفضت ، كأن ماء ساخنا قد حرق يدي .
« انك مجلد ، أبك مرض ؟ » سألتني فيرونيكا بقلق ، وقد حيرتها درجة حرارة
جسمي .

كان هذا فوق ما استطيع ان اتحمل ، فتحججت بصدايح اليم ، وطلبت اليها ان
تتركني .

« الى الغد » ، قالت فيرونيكا ، وهي تلوح بيدها ، كطفل . « وبوسعك ان تعطيني
صبيرة غدا . اعرف انك ستفعل » .

كلمتني هذه المرأة الشابة الرفيعة بلهجة مدير المحاسبين . اعترفت بحبها وطالبت بالجزاء .
اين قرأت ان الانسان اذا احب اضحى اشبه بعبد مطيع ؟ هذا ليس صحيحا البتة .
ما على الانسان الا ان يقع في شرك الحب ، ليأخذ يشعر في الحال بأنه رب وسيد ، وبأن
له الحق بان يصدر اوامره لكل من لا يحبه كفاية . كم اتنى الا يحبني احد !
وعندما بقيت لوحدي ، بدأت اسقي الصبيرات عندي ، واطعمها ببطء ، من فنجان
مطلي بالميناء - اطفال في الحدوديات - واسترحت .

كانت الساعة الثانية صباحا وشعرت بانني اكاد اموت من الجوع ، فاسترقت الخطي
على رؤوس اصابعي مروراً بالممر المعتم الى غرفة الحمام . وهناك تمتعت بوجبة فاخرة حقاً !
شاق جداً هذا ، ان آكل وجبة واحدة في اليوم .

مر اسبوعان منذ تلك الامسية . وانبأتني فيرونيكا ان ملازما في الجيش وممثلاً من
مخرج ستانيسلافسكي يخطبان ودها . لكن هذا لم يمنعها عن اعطائي انا الافضلية .
وهذه كانت بان تخلق شعر رأسها كيلا اجراً على التحدث مرة اخرى عن جمالها وعن انه من
السخف ان تضحي به في سبيل رجل قبيح مسن . واخيراً فكرت في ان تتجسس عليّ ،
وان تقبع في انتظارني وانا في طريقي الى غرفة الحمام .
« النظافة تضفي على الحُذْب الجمال » - هذا هو الجواب التقليدي الذي ارد به علي
تساؤلاتها عن سبب اغتسالي بكثرة .

ومهما يكن من امر ، فاني بدأت اغلق النافذة ما بين الحمام والمرحاض بلوح خشب
كثيف . وعمدت على الدوام الى التأكد من ان الباب مقفول قبل ان ابدأ بنزع الثياب عني .

فلم اكن استطيع تحمل الخاطر بان احدا ما قد يكون يراقبني .
صباح الامس اردت ان املأ قلبي بالحبر واثابع يومياتي غير المنتظمة . فقرعت
باب غرفتها . لم تكن فيروني كما قد نهضت من فراشها بعد ، وكانت تستلقي فيه وتقرأ
« الفرسان الثلاثة » .

قلت لها ، محييا بتأدب : « ستأخرين عن المحاضرة » .
فاغلقت الكتاب وقالت : « هل تعرف ان البناية بكاملها تنظر اليّ على
انني خليلتك ؟ »

غير اني لم اقفوه بكلمة ، وعندئذ حدث شيء فظيع . برقت عينا فيرونيكا ، وقذفت
عنها غطاءها ، وراح يحملق فيّ بغضب جسدها كله المكشوف بكامله . « انظر ، يا اندريه
كازيميروفيتش ، الى ما قد رفضته ! »

قبل حوالي خمسة عشر عاما وقع تحت يدي كتاب في علم التشريح . ولما كنت
ارغب في الوقوف على حقائق الاشياء ، فاني درست بعناية جميع الصور والرسوم التي
فيه . وفيما بعد اتحت لي ، في منزله غوركي للثقافة والاستراحة ، فرصة مراقبة
بعض الاولاد الصغار يستحمون في النهر . الا ان مشاهدة امرأة حية عارية ، وبمثل هذا
القرب الشديد ، لم تكن قد حدثت لي حتى الآن من قبل .

اعود فاقول ، كان شيئا فظيعا . بدا لي ان جسدها كله بذات اللون الابيض غير
الطبيعي الذي كان به عنقها ووجهها وذراعاها . وكان يتدلى من امامها زوجان من الائداء
البيض . وخيل لي اول الامر انها زوجان ثانويان من الازرع وقد بقرا فوق المرفقين . غير
ان كلا منهما كان ينتهي بمصاصة مستديرة كأنها زر جرس كهربائي .

بعد هذا ، ونزولا حتى الساقين ذاتيهما ، كان يحتل الفسحة الخالية برمتها بطن كروي .
هنا كان يتجمع في كومة واحدة الطعام الذي تزدرده طوال اليوم . وكان الجزء السفلي
منه يغطيه شعر متجمد ، كرأس صغير .

لوقت طويل كانت مشكلة الجنس تزعجني ، وهي المشكلة التي تلعب دورا اوليا في
حياتهم الفكرية والخلقية . وقد غلُفت ، منذ العصور القديمة ، ضنا بالسلامة كما اعتقد ،
بحجاب من السرية لا يخترق . فحتى في كتب التشريح لا نجد شيئا عن الموضوع ، وما
نجده فيها عنها عرضي ومبهم ، فلا يمكن ان يعرف المرء ما المقصود على وجه التدقيق .
لهذا فاني قررت الآن ، وقد تغلبت على هلمي ، ان اغتتم الفرصة المؤاتية وان
اصوب نظري على المكان الذي تروي لنا الكتب التشريحية المدرسية ان عدة الولادة
تكمن فيه ، بحيث تقذف ، كمنجنيق ، باطفال جاهزي الصنع .

وهناك وقع بصري على شيء شبيه بوجه بشري . سوى انه لم يبدو لي مؤثنا ، بل

بدا اشبه بوجه رجل في منتصف العمر ، غير حليق ، كاشف عن اسنانه .
كان يقطن بين ساقينها رجل جائع مغضب . من المحتمل انه يشخر في الليالي ، ويحتال
على الضجر بالشتائم . لا بد ان هذا مصدر طبيعة المرأة المزدوجة ، التي قال عنها
ليرمونتوف واجاد في قوله :

« فاتنة كملك سماوي ،

كشيطان مكاراة آثمة » .

لم اتمكن من تفحص الامر بكامله ، لان فيرونيكا انتفضت على حين غرة وقالت :
« تعال الي » .

واقفلت عينيها وفتحت فيها ، كسمكة مسحوبة من الماء . وراحت تتقلب بعنف في
الفراش ، كسمكة بيضاء ضخمة ، عبثا وبدون جدوى ، بينما اخذت تغطي جسدها
حبيبات يميل لونها للزرقة .

« سامحيني ، يا فيرونيكا غريغوريفنا » ، فلت بخفر ، « سامحيني . لكن الوقت قد
حان الآن لان اذهب الى عملي » .

وانطلقت ذاهبا ، وانا احاول الا اضرب الارض برجلي والا التفت خلفي .

في الشارع كان المطر يتساقط ، لكنني لم اكن في عجلة : فالיום يوم التنظيف في الدائرة .
لقد تخلصت من فيرونيكا ، متذعرا بواجبي الرسمي (الحسابات ، النيكوتين ، مدير
المحاسبين جيكونوف ، السكرتيرات المحقاوات - كل هذا لقاء ٦٥٠ روبلا في الشهر) ،
فكان بامكاني ان اسمح لنفسي بهذا الترف الكهالي ، بمشوار في الهواء الطلق في يوم ماطر .
ووجدت بالوعة مثقوبة ، ووقفت تحت الماء المنصب منها . وانساب الماء نزولا من
على رقبتني ، منعشا طيبا ، وبعد حوالي ثلاث دقائق كنت مبللا بما فيه الكفاية .

كان المارة يمتازون من قربي مسرعين ، وهم يحملون مظلات ويلبسون كالوشات من
المطاط ، فينظرون الي باطراف عيونهم ، وقد استلقت نظرهم تصرفي . وكان علي ان
ابدل وضعي ، فرحت امشي في برك الماء ، الواحدة بعد الاخرى ، عوضا عن ذلك .
وكان حداثتي يسمح للماء بدخوله بشكل حسن . في القسم السفلي مني ، على الاقل ، كنت
اشعر بالمتعة والسرور .

« آه يا فيرونيكا ، آه يا فيرونيكا » ، رحت اكرر بحنق . « لماذا بلغت بك القسوة
حد الوقوع في حيي ؟ لماذا لم تشعري ولا بقليل من الحجل من مظهرك الخارجي ، وتصرفت
بهذه الصراحة التي لا تغتفر ؟ »

وبعد ، فالحجل في الانسان هو فضيلته الرئيسية . انه ادراك الانسان القاتم ببشاعته

بشاعة لا يمكن التبديل فيها ، والرعب الفطري مما يخبئه تحت ثيابه . ان الحجل وحده ، الحجل والمزيد من الحجل ، هو الذي يمكن ان يضيف عليه بعض النبل وان يجعله لا اكثر جمالا وانما اكثر تواضعا على الاقل .

طبيعي اني ، عندما الفيت نفسي هنا ، اتبعتم نمط الحياة العام في هذا المكان . فعلى المرء ان يراعي شرائع البلد الذي يضطر لان يعيش فيه . يضاف الى هذا ان الخطر المائل ابدا امامي ، من انه سيلقى القبض عليّ ويكشف سري ، اضطرني الى ان الف جسمي كله بهذه الثياب التنكرية البالية .

لكن لو كنت مكانهم ، لما نزعتم عني معطفي الفرو ، فكم بالحري بدلتني ، لا خلال النهار ولا خلال الليل . ولفتشت عن جراح تجميل يقصر من طول ساقني ، ويضع على الاقل حدة على ظهري . ان الحُدْب هنا اوسم حتما من سائر الناس ، مع انهم مسوخ قباح هم ايضا .

وتوجهت صوب شارع هرتزن وصدرني يضيق بالكآبة . ذلك الاحدب ذاته كان يستأجر غرفة ارضية مقابل معهد الموسيقى . لقد لبثت اراقبه شهرا ونصف شهر - اراقب هذا الرجل الرشيق المقوس الظهر ، الذي لم يكن يشبه الكائنات البشرية ، وكان يذكرني بشكل من الاشكال بشبابي الذي لا سبيل الى ان يسترد .

ثلاث مرات متتالية رأيت في المصبغة . ومرة في دكان ازهار كنت قد ذهبت اليه لاشترى صبيرة . وساعدني حسن حظي على ان اتعرف ، عن طريق وصل الغسيل الذي دفع به الى الوظيفة في المصبغة ، الى عنوان منزله . كان الوقت قد حان لوضع النقاط على الحروف .

قلت لنفسي ان هذا مستحيل ، ان الجميع قد هلكوا وانا وحدي الذي نجوت ، على شاكلة روبنسون كروزو . بل اني بنفسني صفيت بيدي كل ما كان قد بقي بعد الاصطدام . لا ، ليس هنا من احد سواي .

لكن ماذا اذا كانوا قد ارسلوه لبحث عني ؟ متظاهرا بانه احدب ، متنكرا ... انهم يبدون اهتماما بي ! تنبهوا فجأة الى ما حدث ، وارسلوا من يبحث عني ! لكن من اين لهم ان يعرفوا ؟ بعد اثنتين وثلاثين سنة . حسب التوقيت المحلي ، لكن مع هذا . حي وبصحة جيدة . هذا شيء ليس بالقليل .

لكن لماذا هنا على وجه التدقيق ؟ هذا هو السؤال . لم يكن في مخطط احد المهيم الى هذا المكان . اتجاه مغاير تماما . مثل هذه الاشياء لا تحدث . لقد ضللنا الطريق . سبعة ونصفا . علقه سخنة .

ربما كان ذلك بمحض الصدفة ؟ الهفوة ذاتها . ابتعاد عن الطريق المخطط وعن توقيت الشتاء . اول مكان نصادفه . بالطبع هناك مصادفات . مماثلان كحبتين من الحمص . حيث لم يطأ احد بقدميه . وان يكن ؟ متكررا بزيّ احذب . مثلي بالتمام . ولو انه وحده مثلي بالتمام !

فتحت الباب امرأة شديدة الشبه بكوستريتسكايا . لكن كوستريتسكايا هذه كانت اضخم حجما واكبر سنا . كانت تنبعث عنها رائحة الليلك ، اقوى من الرائحة الطبيعية بعشر مرات . عطر ، لا شك .

« سيعود ليوبولد عما قريب . تفضل ، ارجوك » .

وانبعث نباح كلب لم أره من اعماق الممر . لكنه لم يعقد النية على الوثوب عليّ . وكانت قد سبقت لي اختبارات سيئة مع امثال هذا الحيوان .

« ما بك ؟ انها لا تعض . اجلسي ، يا نيكسا ، اصمتي ! »

وقام بيننا نقاش رفيق بينما تابعت الكلبة زجرتها ، ثم ظهرت من الابواب الجانبية رؤوس ثلاثة ، ونظرت اليّ من فوق الى تحت باهتمام . وشرعت تمطر الكلبة بالسباب . كانت الضوضاء فظيعة .

دخلت الغرفة وانا اقوم بمخاطرة كبيرة ، وكان فيها صبي يتقلد سيفا . وعندما رآنا طلب صحننا من التوت والسكر ، واخذ يولول ويزعق ويزوي وجهه ويلوي مؤخرته . قالت كوستريتسكايا مفسرة : « انه يحب الحلويات . مثلي بالتمام . كفّ عن الزعيق والا فان عمك هذا سيأكلك » .

قلت مازحا ، ارضاء لمضيفتي ، اني عوضا عن الشورباء احتسي دم الاطفال المسخن . فهدأ الطفل في الحال . والقى سيفه ورمى بذاته في ابعد قرنة في الغرفة . ولم يل بعينه عني . وكانتا مليشتين بالخوف ، كخوف الحيوان .

« هل يشبه ليوبولد ؟ » سألتني كوستريتسكايا ، كأنما بمحض الصدفة ، ولكن باختلاج رقيق في صوتها .

تظاهرت بتصديق ما المحت اليه . كان الجو الخائق وما ارتبط به من تضرع الليلك ، قد جعلني اشعر بالدوران . وتأثر جلدي بفعول الرائحة ، فانتثر الطفح في بضعة مواضع فيه . وخشيت ان يتشقق وجهي في بقع خضراء متفرقة .

وفي الممر كانت نيكسا الهائجة ترعد وتزبد وتحشد الارض باظفارها وتشمشم آثار اقدامي بصوت مرتفع . وشرعت التزيلات يتها مسن فيما بينهن ، غير مدركات ما اتمتع به من ملكات سمع رهيبة لحد فائق .

« واضح انه شقيق ليوبولد سيرغفتش ... »

« لا ، غير ممكن ، ان احدبنا ان قورن بهذا هو توأم لبوشكين » .

« ليحمننا الله من رؤية شيء مثل هذا في حلم ... »

« حتى النظر اليه يلعي المعدة ... »

انقطع هذا كله نتيجة وصول ليوبولد. واتذكر اني اعجبت بالطريقة التي لعب بها دوره في الحال ، الدور الكلاسيكي لاحدب يلتقي مسخا مماثلا له على مرأى من غرباء .

« آه ! زميل في التعاسة ! الى من لي الشرف ... الى ماذا ادين ... ؟ »

كان يقلد نمطا نفسيا دقيقا كبيت عنكبوت : الكبرياء تحميها السخرية من الذات ، والخنجل يختبئ تحت ستار الجحون . وامتطى كرسيه كخيال ، وقد عانقت ساقاه المقعد ، وقفز واقفا ، وجلس من جديد وظهره للامام ، ملقيا برأسه على خلفية الكرسي ، ولاعبا بوجهه العابا غريبة ، ولم ينقطع عن هز كتفيه وكأنه يحس حذبه التي كانت تطل عليه كقمطر المسافر .

« اجل ، اجل . اذا فانت اندريه كازيميروفيتش . واسمي انا (ويا للدعابة)

ليوبولد سيرغفتش . وانا ايضا ، كما تلاحظ ، احدب بعض الشيء » .

اعجبني هذا الكاريكاتور البارع للبشرية ، هذا الفن الطبيعي جدا لانه لا معقول ابدا ، وادركت بشيء من الاسى تفوقه عليّ في فن الحياة ، وعجزني عن مجاراته في اقتحام الشكل الوحيد الممكن لنا على الارض - شكل المسوخ الحذب ومحبي الذات المعرضين ابدا للاذية .

لكن الوقت وقت عمل ، وجعلته يفهم اني اود ان احادثه - على حدة .

قالت كوستريتسكايا باستياء : « لن يضيرني الذهاب » ، وانصرفت وقد سلقنتني

بدفقة وداعية من ارييحها الحارق .

انتقمتم منها بخاطر جال في رأسي : من انها مشبعة بهذه الرائحة في كل انحاء جسمها .

حتى برازها لا بد ان تكون له رائحة العطر ، عوضا عن البطاطا المسلوقة والمأكول البيتية ،

كما هي الحال في العادة . ولا بد انها تبول انقى انواع الكولونيا . في هذا الجو سرعان ما

سيبدأ ليوبولد التعس ، هو ايضا ، ينتن .

عندما اضحيننا لوحدا ، باستثناء الصبي الذي جلس كقطعة حجر في القرنة

القضية وعلى وجهه تطلعية مبهورة تم عن الرعب والحيرة ، سألته بدون لف او دوران :

« هل انقضى وقت طويل منذ تركك هناك ؟ »

قال ، متجنباً الرد : « تركي اين ؟ »

كان انصراف صاحبة البيت قد محى عن وجهه الجبور الذي كان قد اصطنعه قبلا .

ولم يبق اي اثر للمجوث الشائع بين اغلبية الحُدُب ، الذين لهم من الذكاء ما يجعلهم يخشون ظهورهم ولهم من الكبرياء ما يجعلهم لا يقاسون من ذلك . وخيل لي انه لم يتالك نفسه بعد ، وانه بفعل قوة الاستمرار كان ما يزال متعبا يتابع التظاهر بأنه شيء آخر غير ما هو فعلا .

« اقلع عن هذا » ، قلت بهدوء . « لقد عرفتك منذ النظرة الاولى . اننا كلانا من المكان ذاته . اننا قريبان ، بمعنى من المعاني » . وهمست في اذنه : بخنتس ! بخنتس ! ، لاذكره بالاسم المقدس عندنا كلينا .

« ما الذي قلته ؟ ... اتدري ، انت ايضا تبدو لي وكأن فيك شيئا مألوفا الي . اين يمكن ان اكون قد رأيتك قبلا ؟ »

ومسح على جبينه ، وقطب حاجبيه ، وزم شفقيه . كانت حركات وجهه اقرب الى ان تكون بشرية ، ومن جديد حسدته على اسلوبه الخارق الذي تمرن عليه كثيرا ، ولو ان تهريجاته هذه التي لجأ اليها بعناية كانت قد بدأت تغيظني .
صاح ، متابعاً تهريجه : « بالطبع ! الم تكن تعمل ذات مرة في دائرة المعدات المكتبية ؟ كان المدير هناك في ١٩٤٤ ياكوف سولومونوفيتش زاك - يهودي ضئيل طيب ... »

اجبت بحدة : « لا اعرف اي شخص اسمه زاك . لكننا اعرف جيدا انك انت ، ليوبولد سيرغفتش ، لست بليوبولد سيرغفتش مطلقا ، ولست باحدب ، مع انك تحمل حديثك عارضا اياها في كل مكان . كفانا تظاهرا الآن . وبعد ، فان الخطر الذي اعرض نفسي اليه ليس اقل من الذي تعرض نفسك انت اليه » .
وجن جنونه فعلا :

قال : « كيف تجرؤ على ان تقول لي من انا ؟ تفسد عليّ علاقتي مع صاحبة البيت ، ثم تهينني انا ايضا ! اذهب وجد لنفسك امرأة بديعة مثل هذه ، وبعد ذلك يحق لك ان تتحدث عن نواقصي الجسدية . انك اكثر حذبا مني ! اتسمعني ؟ انك تبعت الاشمزاز اكثر مما ابغته انا . ايها المسخ ! ايها الاحدب ! ايها الكسيح الحقير ! »
وفجأة انفجر ضاحكا واخذ يضرب رأسه بكفه : « لقد تذكرت الآن ! لقد رأيتك في المصبغة . ان الشبه الوحيد بيننا هو هذا ، اننا نرسل غسيلنا للتنظيف في المكان ذاته » .

هذه المرة لم اشكك في اخلاصه . اجل ، انه فعلا يعتقد انه ليوبولد سيرغفتش . لقد تلبس دوره تلبسا تاما ، اصبح كاهالي البلاد ، اصبح بشريا ، عود ذاته تعويدا مبالغا فيه على البيئة التي هو منها ، واستسلم للتأثيرات الاجنبية . لقد نسي اسمه السابق ، وخان

وطنه البعيد ، وان لم يهرع احد لاغاثته فانه هالك لا محالة .
واخذته من كتفيه وهززه بحذر . هززه ، ورجوته بطريقة رفيقة ودية ان يتذكر ،
ان يحاول ان يتذكر ، ان يعود الى ذاته الحقيقية . وما الذي يريده من كوستريتسكايا
تلك ، التي ينضح منها مثل ذلك العبير السام ؟ فحق بين ابناء البشر ، النزعة البهيمية
ليست مجلبة للاحترام . وفوق هذا ، فان خيانة الوطن ، حق وان كانت بدون سابق
قصد وقصم ، وان كانت بفعل نسيان عادي ...
« بختنس ! بختنس ! » ، تلفظت بها مرة بعد مرة ، واعدت كلمات اخرى كنت
ما زال ا تذكرها .

وفجأة وصلني دفء من خلال سترته الخشنة ، منبعث من مكان لا يدري كنهه
احد . وراحت كفاه ترددات سخونة شيئا فشيئا ، واضحتا ساختين سخونة يدي
فيرونيكا ، وآلاف من الايدي الساخنة الاخرى التي آثرت الا اصافحها عند التحية .
« ساحني » ، قلت له ، وانا اخفف من قبضة يدي . « يبدو ان خطأ ما قد حصل .
سوء تفاهم مؤسف . فالواقع اني - كيف استطيع ان افسر هذا لك ؟ - عرضة لنوبات
عصبية تصيبني ... »

في تلك اللحظة سمعت صوتا عاليا فظيعا ، والتفت ، فاذا بالصبي يرقص من خلفي ،
على بعد ما عني ، ويتوعدي بسيفه .

صاح : « اترك ليوبولد وشأنه ! ايها الرجل الشرير ! اترك ليوبولد وشأنه ! امي تحبه ،
انه ابي ، انه ليوبولدي انا ، لا ليوبولدك انت ! »

لم يكن ثمة مجال للشك . لقد ظننته شخصا آخر . لقد كان كائنا بشريا طبيعيا ، اكثر
الكائنات البشرية طبيعية ، سواء كان ذا حذبة او لم يكن .

اشعر كل يوم باثي اسوأ مني في اليوم السابق له . لقد حل الشتاء - وهو ابرد الفصول
في هذا الجزء من العالم . ولم اعد اخرج من البيت مطلقا .

ومع هذا ، فمن الاثم ان اتذمر . بعد عطلة تشرين الثاني (نوفمبر) تقاعدت على المعاش .
لا احصل مبلغا كبيرا ، لكن بالي اكثر هدوءا الآن . والا فكيف كنت لاستطيع تدبير
اموري اثناء مرضي الاخير ؟ لم اكن لاستطيع ان اوفر من القوة ما يمكنني من الذهاب الى
المكتب والعودة منه ، والحصول على تقرير مرضي من الطبيب كان ليثير الحرج ويحتذب
المخاطر . فهل كان معقولا ان اسمح لطبيب بان يفحصني وقد بلغت من العمر هذا الحد

الذي بلغت ؟ ان هذا كان ليحمل لي الدمار .

احيانا اسائل ذاتي سؤالا ما كرا : لماذا في الواقع لا اجعل وضعي وضعاً قانونياً ؟ لماذا صرفت ثلاثين عاماً اظاهر بانني شخص آخر ، كأني مجرم ؟ « اندريه كازيميروفيتش شسينسكي . نصف بولندي ، نصف روسي . العمر ٦١ سنة . مشوه . ليس عضواً في الحزب . اعزب . لا اقرباء له ، ولا اولاد . لم يسافر للخارج قط . ولد في اركوتسك . الاب : كاتب . الام : ربة بيت . كلاهما ماتا بالكوليرا في ١٩٠١ . وهذا كل شيء . وماذا يحدث ان انا ذهبت الى الشرطة ، واعتذرت ، ورويت لهم القصة كلها ببساطة ، مفسراً كل شيء كما حدث ؟

كنت لاقول : حسناً اذاً ، هذه هي القصة . تستطيعون بانفسكم ان تروا - انا مخلوق من عالم آخر . لا من افريقيا ولا من الهند ، ولا حتى من المريخ او من اية من زهراتكم ، بل من مكان ابعد بكثير والوصول اليه اشد صعوبة . بل ليست لديكم اسماء لمثل هذه الاماكن ، واذا نثرتم امامي كافة خرافات النجوم وبياناتها الموجودة لديكم ، فاني بالحقيقة لن استطيع ان اريكم اين هي تلك النجمة الرائعة ، مسقط رأسي . فانا ، بدء ذي بدء ، لست خبيراً في القضايا الفلكية . ذهبت حيث اخذوني . ثانياً ، الصورة مختلفة تمام الاختلاف ، وليس بوسعي ان اتعرف الى سماواتي الحبيبة من كتبكم وخرائطكم واوراقكم . حتى في الوقت الحاضر ، اخرج في الليالي الى الشارع ، وانظر الى العلاء واتطلع - لكنها ليست هي . بل اني لا اعرف في ابي اتجاه اوجه توقي وحنيني . قد يكون انه من هنا تستحيل رؤية شمسي ، فكم بالحري رؤية ارضي ايضاً . قد تكون واحدة من تلك الكواكب التي في الجزء الآخر من المجرة . من يستطيع ان يقول ؟

ارجوكم الا تظنوا اني جئت الى هنا لقصد ما خبيء . هجرة الشعوب ، وحرب العوالم ، وكل هذا الهراء . وعلى كل ، فانا لست بالرجل العسكري ، ولا بالعالم ، ولا بالجواله الرائد . مهنتي مسك الدفاتر - مهنتي هنا ، اقصد . اما ما كنت افعله في السابق فن الافضل الا اجيء على ذكره - فانكم لن تفهموا شيئاً ان انا فعلت .

هذا ولم تكن نهدف ابداً الى الاقلاع في الفضاء . كل ما في الامر اننا كنا في طريقنا الى مكان نقضي فيه عطلتنا . ثم حدث شيء ونحن في الطريق - لنقل انه كان نيزكاً ، لتسهيل الامر عليكم - ففقدنا الجاذبية ، وسقطنا ، في المجهول ، طوال سبعة اشهر ونصف الشهر لبثنا نسقط - لكنها اشهرنا نحن لا اشهركم - وهبطنا هنا بمحض الصدفة . وعندما عدت الى رشدي ، نظرت من حولي - كان جميع ارفاقي قد هلكوا .

فدفتهم كما ينبغي ، وبدأت احاول ان اكيف ذاتي .

كان كل شيء من حواليّ غريبا مضطربا . في السماء كان يشتمل قمر ضخم اصفر - لكنه مفرد . كان الهواء غير الهواء ، والضوء غير الضوء ، وقوى الجاذبية والضغط كانت كلها غريبة . ماذا استطيع ان اقول ؟ كانت شجرة الصنوبر العادية جدا تؤثر في حواسي ، المختلفة عن حواس هذه الارض ، كما يؤثر فيكم القنفذ .

اين اذهب ؟ على المرء ان يأكل ويشرب . انا بالطبع لست بالانسان ولا بالحيوان ؛ واميل الى عالم النبات اكثر مما اميل الى اي شيء آخر موجود عندهم هنا ؛ لكن لديّ انا ايضا حاجات اولية . اول شيء احتاج اليه هو الماء ، لتعذر وجود نوع افضل من الرطوبة ، ويفضل فيه ان يكون على درجة معينة من الحرارة ، واحتاج من حين لآخر الى اضافة الاملاح الناقصة الى الماء الذي اشربه . وفوق هذا ، فقد احسست ببرد متزايد في الجو المحيط بي . ولا حاجة بي لان اذكر كم بما في سيبريا من صقيع .

لم يكن بوسعي ان افعل شيئا ، وكان عليّ ان اترك الغابة . وكنت قد صرفت الايام السابقة اراقب الناس من وراء الشجيرات واحصي حركاتهم . ادركت في الحال انهم مخلوقات عاقلة ؛ لكنني كنت متخوفا اول الامر من انهم سيأكلونني . وغطيت ذاتي بلفة من الحرق (كانت هذه سرقتي الاولى ، ويمكن غفرانها نظرا للظروف التي حدثت بها) وخرجت من الايكة ووجهي كله يفيض بامائر الود .

ان شعب ياقوت شعب مضياف حسن الطوية . منهم تعلمت ابسط العادات البشرية . ومن ثم انتقلت الى المناطق الاكثر تحضرا . فتعلمت اللغة ، وحصلت على المعرفة ، ودرست الرياضيات في مدرسة ثانوية في مدينة اركوتسك . وسكنت في القرم زمنا ، لكنني سرعان ما تركتها بسبب الطقس : فهو حار شديد الحرارة في الصيف ، وخالٍ من الدفء في الشتاء ، بحيث لا غنى للمرء عن شقة مدفئة تدفئة كهربائية ، ومثل هذه الوسائل لم تكن شائعة جدا هناك في العقد الثالث من القرن وكانت تكلف مبالغ ضخمة ، اكثر بكثير مما كان يستطيع جبي ان يتحمل . وهكذا فاني استقرت في موسكو ، وما زلت فيها منذ ذلك الحين .

لو اني رويت هذه القصة المحزنة ، مهما كان الشخص الذي ارويها له ، ومهما عدلت فيها ببراعة للقارئ العام ، فان احدا ما لن يصدقني ، لن يصدقني ابدا . لو ان بامكاني ان اذرف الدموع ، كما تستدعي قصتي - لكن رغم اني دربت ذاتي على الضحك ، بطريقة من الطرق ، فاني لا اعرف كيف ابكي . سيعتقدون اني مجنون ، حالم ، بل انهم قد يقدمونني للمحاكمة لحيازتي جواز سفر غير صحيح ولتزويري توقعات واختتام اولنشطات

غير شرعية اخرى .

واذا حدث ، على نقيض ما يقول به العقل ، ان صدقوني ، كانت الحالة اسوأ .
ذلك ان اساتذة الجامعات سيتجمعون عليّ من كافة الجامعات في كل مكان -
فلكيون ، ومهندسون زراعيون ، وفيزيائيون ، واقتصاديون ، وجيولوجيون ، ولغويون ،
وعلماء نفسانيون ، وعلماء حياة ، وخبراء بالجراثيم ، وكيميائيون ، وعلماء كيمياء حيوية -
ليدرسوني حتى آخر ذرة في جسمي ، غير غافلين عن شيء . ولن ينقطعوا عن طرح
الاسئلة ، والاستجواب ، والامتحان ، واستئصال المعلومات .

وستنتشر الرسائل الجامعية غني ، والافلام ، والقصائد ، في ملايين من النسخ .
وستشرع النسوة يستعملن اخضر الشفاه ، ويلبسن قبعات تشبه الصبير ، او اذا عجزن عن
ذلك فعلى الاقل تشبه ورق المطاط ، وسينعم الحُدُب جميعا ، لمدة سنين في المستقبل ،
بنجاح باهر في علاقاتهم مع النساء .

وستسمى سيارات باسم وطني ، وسيسمى باسمي مئات من الاطفال المولودين حديثا ،
بالاضافة الى الشوارع والكلاب . وساصبح شهيرا شهرة ليو طولستوي ، او غليفر ، او
هرقل . او غاليليو غاليلي .

لكن بالرغم من هذا الاهتمام العام بشخصي الوضيع ، لن يفهم احد شيئا . وكيف
يفهموني ، ما دمت اعجز انا ذاتي تمام العجز عن التعبير عن طبيعتي اللابشرية بلغتهم هم؟
ادور حول الموضوع ، واحاول الوصول الى شيء عن طريق المجاز والاستعارة ، لكن
عندما يصير لزاما ان اقول شيئا في الصميم ، لا اجد ما ا قوله . لا استطيع ان ارى الا
« غوغري » قصيرة صلبة ، ولا ان اسمع الا « فزغلياغو » سريعة ، و « بخنشنس » جميلة
جمالا يفوق الوصف تتألق في جسدي . هذه المفردات اخذ عددها يتضاءل تدريجيا في
ذاكرتي . ولا استطيع ان انقل بنيانها باللفظ البشري الا بشكل تقريبي . واذا ما احاط
بي لغويون من كل جانب وسألوني : « بماذا تسمي هذا » ، فلن يكون بمقدوري اكثر من
ان اقول : « غوغري توجروسكيب » ، وان اهز كتفي مقرا ببعجي .

لا ، سيكون من الافضل لي ان اتحمل معيشتي وحيدا ومتنكرا . فاذا ما وجد شيء
يخلص جدا مثلي ، فعليه ان يوجد دون ان يلتفت الى وجوده احد . وان يهلك دون ان
يلتفت الى هلاكه احد .

لكن عندما اموت - وسأموت عما قريب - فانهم قد يحتفظون بي في وعاء
زجاجي ، ويخللونني بالكحول ، ويعرضونني في احد متاحف التاريخ الطبيعى . وسيمر
العلماء بي صفا تلو صف ، وسيترجفون خوفا وسيضحكون ضحكات استهزاء كيما
يأكل على خوفهم ، وسيقولون باشارة اشمزاز : « يا الله ، اي مخلوق شاذ هذا ، اي

مسخ شديد البشاعة ! »

لست مسخاً ، اقول لكم ! ألجورد اني مختلف عنكم ، تجدون لزاما ان تتصرفوا معي بوقاحة ؟ لا فائدة من قياس جمالي بمقياس قباحتكم . انا اشد منكم وسامة ، واكثر طبيعية . وكلما نظرت الى ذاتي تبين لي ان لديّ دليلا ، هو بصري انا ، على ذلك .

قبيل مرضي ظهر في الحمام صدع . اكتشفت ذلك في وقت متأخر من احدى الليالي ، وادركت ان كوستريتسكايا هي التي فعلت ذلك ، كيما تغيظني . ولم اكن لاتوقع اية مساعدة من المسكينة فيرونيكا . فكانت فيرونيكا مستاءة مني منذ تلك الحادثة يوم قدمت لي اغلى ما تملكه ، من وجهة النظر البشرية ، وذهبت اتزده بدلا من ذلك .

لقد تزوجت بالممثل من مسرح ستانيسلافسكي ، وتصلني احيانا اصوات قبلاتها من خلال الجدار الرقيق . سررت فعلا بذلك ، من اجلها هي ، بل اني ارسلت لها يوم زفافها ، دون ان اذكر اسم المرسل ، كعكة ثمنها ١٦ روبلا ، وقد نقشت عليها الحروف الاولى من اسمها وبعض الزخارف الاخرى بالشوكولاتة .

غير اني جائع جوعا لا يصدق ، وقد اعطبت كوستريتسكايا الحمام بقصد اهلاكي . وبانتظار تصليح الحمام فقد سد الثقب الذي ينبعث منه الماء بسدادة من خشب ، فانقطع حبل الماء . وهكذا ، فعندما اوى كل واحد الى فراشه وصار بوسعي ان اسمع الشخير يتعالى من الطابق العلوي ومن الطابق السفلي ومن جميع الغرف الى هذا الجانب مني وذاك ، نزع دلو فيرونيكا عن المسبار الذي كان مسنودا اليه في المراض ، حيث يتعلق هو وادلاء بقية جيراني . وانبعث عنه صوت كصوت الرعد وانا اجرجره على طول الممر ، وتوقف احد النائمين في الطابق السفلي عن شخير . لكنني انجزت مهمتي ، وغليت غلاية بالماء الساخن في المطبخ ، وملأت سطلا بالماء البارد ، وحملت كل هذا الى غرفتي ، واقفلت الباب عليّ ، واثبت المفتاح في الثقب .

باية لذة شعرت حينما خلعت عني ملابسني ، ونزعت شعري المستعار ، واستأصلت اذنيّ المصنوعتين من مطاط حقيقي ، وحللت الاربطة التي تشد ظهري وصدري . وتفتّح جسدي كأنه سعة نخلة احضرت للبيت من دكان ملفوفة في ورقة . وعادت الى الحياة والحركة جميع الاعضاء التي كانت قد اضحت خدرة خلال النهار .

ركزت ذاتي في الدلو ، واخذت اسفنجة في يد لاعصر الماء فوق كافة الاماكن الناشفة ، وامسكت بالغلاية في يدي الثانية . واخذت كوزا من الماء البارد في يدي الثالثة ، واضفت اليه شيئا من الماء الساخن ، واختبرته بيدي الرابعة ، اليد الاخيرة المتبقية لي ، لاتأكد انه لم يصبح ساخنا جدا . آه ، اية راحة منعشة !

تشرب جلدي بسهولة هذا السائل الثمين الذي كان ينصب عليه من عل من الكوز المطلي بالميناء. وعندما كانت آلام الجوع الاولى قد انقضت، عزمت على تفحص ذاتي عن كتب، كيميا ازيل عني المواد اللزجة المؤذية التي افرزتها مسامي وتحثرت في بعض المواضع في جلد بنفسجية اللون ناشفة. اجل، كانت عيوني في ايديّ وقدميّ وعلى قمة رأسي وفي قفارقتي قد بدأت تضعف كثيرا، نظرا لاحتجاجها خلال النهار وراء اثواب خشنة وشعر مستعار. وكنت قد خسرت احدى عيوني في ١٩٣٤، عندما اعماها الاحتكاك بجذاتي الايمن. ولم يكن من السهل عليّ القيام بتفحص شامل فعلا لذاتي.

غير اني برمت رأسي، غير مكثف بتحريكه حتى نصف دائرة - المائة والثمانين درجة الزهيدة المتاحة للرقبة البشرية - واخذت اطوف في وقت واحد بجميع عيوني التي تبقت سالمة، طاردا التعب والعمّة، وافلحت في رؤية نفسي من جميع الجهات ومن زوايا عديدة مختلفة في الوقت ذاته. كم كان مدهشا، ذلك المنظر، وكم هو محزن انه متاح لي وحدي فقط وفي ساعات الليل القصيرة دون سواها. فما عليّ الا ان ارفع ذراعي، فأرى ذاتي من السقف، كما لو اني احلق وارفرق فوق ذاتي. وفي الوقت نفسه، بفضل العيون الباقية، لا ادع اجزائي التحتانية ولا الخلفية ولا الامامية ولا ايا من فروع جسدي المنتشرة، تغيب عن بصري. لو اني لم اكن قد عشت اثنتين وثلاثين سنة في المنفى، لم لي لم اكن لاحم قط بالتفرج على مذهري الخارجي والاعجاب به، لكنني، في هذا المكان، المثال الوحيد على ذلك الاتساق، ذلك الجمال، الفقيد - الذي اسميه موطني. فما الذي استطيع ان افعله في هذه الارض سوى ان اقلذ برؤية ذاتي؟

صحيح، ان يدي الخلفية قد اعوجت تبعا لاضطرارها على الدوام للقيام بدور حذبة بشرية. صحيح، ان يدي الامامية قد شوهتها الاطواق الى حد ان اصبعين من الاصابع قد ذوتا، وجسمي الهرم قد فقد اللدونة التي كانت له فيما مضى. لكنني ما ازال جيلا مع هفنا كله! متناسب القوام! انيقا! بالرغم مما قد يقوله المنتقدون الحاسدون. وهذه الامور كنت افكر، وانا اسقي ذاتي من الكوز المطلي بالميناء، في الليلة التي عزمت كوستريتسكايا فيها ان تقضي عليّ عن طريق الحمام المشقوق. لكن ما حل الصباح حتى كنت قد مرضت. لا بد اني اصبت بالبردية وانا في الدلو. وابتدأت بذلك اسوأ فترة من فترات حياتي.

لبثت اسبوعا ونصف اسبوع مستلقيا على سريري القاسي، وشعرت بانني اجف شيئا فشيئا. لم تكن لديّ القوة للذهاب الى المطبخ طلبا لبعض الماء. كان جسمي، المقطع المتكامل في رزمة بشرية، قد اصبح خدرا هامدا. واخذ جلدي الناشف يتشقق. ولم يستطع ان اجلس في سريري لاختفف من قيودي، الحادة كما لو انها من اسلاك.

وهكذا انقضى اسبوع ونصف اسبوع ، ولم يدخل عليّ احد .
ورحت التحيل جيرانى يتلفنون للعيادة الطبية ، وقد اخذ منهم الفرح كل مأخذ ،
عند مماتي . وسيأتي مأمور المنطقة الطبي ليتحقق من سبب الوفاة ، وسينحني فوق السرير ،
وسيقص ثيابي واربطقي واطواقى بمقصه الجراحي ، وسيراجع مرتعبا ويعطى اوامره بان
تسلم جثتي الى اكبر وافضل قاعة تشريح في اسرع وقت ممكن .
وها هي - قنينة الكحول ، الكاوي كعطر كوسترييتسكايا ! وسيقذفون بي ،
حتى آخر الزمن ، انا المسخ ، اعظم مسخ على الارض ، الى القنينة السامة ، الى الحب
الزجاجي ، الى التاريخ - لتثقيف الاجيال القادمة .

وبدأت ائن ، يهدوء اول الامر ، ومن ثم بصوت اعلى واعلى ، بلغة بشرية مقيتة لكن
لا غنى عنها : « ماما ، ماما ، ماما » ، كنت ائن ، محاكيا تنعيم طفل يبكي ومحاولا ان
استدر شفقة اى امرى يصل سمعه انيني . لبثت ساعتين ، اصرخ طالبا الاستغاثة ،
اقسمت خلاهما بانى ان قدر لي العيش فاني ساحتفظ بسري حتى النهاية ، ولن اسمح لهذه
القطعة الاخيرة من موطني ، لهذا الجسد الجميل ، ان يقع في ايدي الاعداء ليمزقوه
ويهزأوا به .

ودخلت فيرونيكا . كانت قد هزلت كثيرا ، وكانت عيناها ، وقد تخلصنا من الحب
ومن الغضب ، هادئتين تنظران بغير اكتراث .
« ماء ! » انبعث صوتي كالنقيق .

قالت فيرونيكا : « ان كنت مريضا فعليك ان تنزع ثيابك وتقيس حرارتك .
سأستدعي الطبيب ، وسيفصدك » .

الطبيب ! يفصدي ! انزع ثيابي ! والآن ستلمس جبيني ، البارد كجو الغرفة ،
وستتحسس باصابعها المشتعلة نبضاتي التي لا وجود لها . غير ان فيرونيكا لم تفعل اكثر
من ان سوت المخذة ، وعندما مست يدها عن غير قصد شعري المستعار سحبتها في الحال
باشمئزاز . واضح ان جسدي لم يثر فيها غير القرف ، شأنها في ذلك شأن جميع
البشرىين الآخرين .

« ماء ! ماء بحق السماء ! »

« اتريد ماء باردا او مغليا ؟ »

في النهاية خرجت وعادت بابرقي ماء . ومسحت كوبا يعلوه الغبار ، ببطم سام
كدت اعتقد ان مبعثه الانتقام مني ، لولا انى اعرف انها لا تعرف شيئا .

قالت : « تعرف ، يا اندريه كازيمير وفيتش ، انى احببتك فعلا . واضح لي انى احببتك
- كيف اقول - بتأثير الشفقة ... الشفقة على كائن بشري وحيد كسيح - واسمح لي ان

اكون صريحة . لكنني احببتك جدا ... لم لاحظ ... نواقص جسدية ... بالنسبة لي كنت اجمل انسان على الارض ، يا اندريه كازيميروفيتش ... اكثر ... انسان . وعندما سخرت مني بتلك القسوة ... اضع حدا لحياتي ... احببت ... لن اخبىء عنك ... رجلا اهلا بالمحبة ... احببت ... رجلا ... بشريا ... بشرية ... انسان لانسان ... قاطعتها ، اذ لم اعد اتحمل : « ارجوك ، يا فيرونيكا غريغوريفنا . اسرعي . ماء ... »

« بشري ... رشبي ... بشرابو ... بشري ... رشبي ... شربي ... بشرابو ... بشري ... »
« ماء ! ماء ! »

ملأت فيرونيكا الكوب ورفعته فجأة الى فمي مباشرة . قعقت اسناني المستعارة على الزجاج ، لكنني لم استطع ارغام ذاتي على تقبل السائل في داخلي . فانا احتاج للشرب من العلاء ، كأني زهرة او شجرة تفاح ، وليس عن طريق الفم . اخذت فيرونيكا تحشني : « اشرب ، اشرب ! الم تقل انك تريد ان تشرب ؟ ... » دفعتها عني وجاهدت حتى استقمت في جلستي وانا اشعر كأني قد متّ فعلا . وانساب الماء خارجا من فمي وسال على السرير . وتمكنت من التقاط بعض نقط منه في راحتي . « ناولينى الابريق وانصرفي » ، امرتها بكل ما تبقى لي من حزم . « اتركيني في هدوء ! سأشربه لوحدي » .

وسالت من عيني فيرونيكا قطرات دمع بطيئة . قالت : « لماذا تكرهني ؟ ما الذي فعلته لك ؟ لقد كنت انت الذي ابيت حيي ، انت الذي رفضت شفقتي ... انك شرير سيء ليس الا ، يا اندريه كازيميروفيتش ، انك رجل رديء جدا » . « ان كانت ما تزال فيك قطرة واحدة من الشفقة ، يا فيرونيكا ، فاذهبي ، ارجوك ، استعطفك ، اذهبي ، واتركيني لوحدي » . خرجت مكثبة . وعندها فككت ازرار قميصي والصقت الابريق بصدري ، وعنقه مصوب للأسفل .

هواء واضطراب في الطبيعة . كل شيء في حمى هيجان . الاوراق تنبثق متسارعة . الدوري ترقزق باصوات مهتزة . الاطفال يهرعون الى امتحاناتهم . اصوات

المربيات في الخارج هستيرية حادة . الهواء له نكهة خاصة . رائحة كوستريتسكايا تعم المكان كله ، يجرعات صغيرة . حتى الصبورات على عتبة شباكي ينبعث عنها في الصباح اريج كأريج الليمون . ينبغي الا انسى ان اقدم صبيرا لفيرونيكا قبل رحيلي . عليّ ان اعترف ان مرضي الاخير قد فعل فعله بي . فهو لم يهدم جسمي فحسب ، ولكنه شلني روحيا كذلك الحال . تنتابني من حين لآخر رغبات غريبة . فقد اشعر بحافز يحثني على الذهاب الى السينما . او قد ارغب في لعب الداما مع زوج فيرونيكا . يقال انه لاعب داما وشطرنج من الطراز الاول .

قرأت اوراقي من جديد ، ولم تبعث فيّ كثيرا من الرضى . في كل عبارة فيها تحس بأثر محيط غريب . ما الفائدة لاي قارئ من هذا الهذر الفارغ بلهجة محلية ؟ ينبغي الا انسى ان احرقها قبل رحيلي . فانا لا انوي عرضها على الناس . وقومي لن يقرأوها قط ولن يسمعوها شيئا بخصوصي . لن يطيروا هذا البعد السحيق الى هذا المكان غير المتحضر .

اضحى اصعب عليّ واصعب ان اتذكر الماضي . مفردات قليلة وحسب بقيت في ذاكرتي من لغتي الاصلية . بل اني نسيت كيف افكر كما اعتدت ان افكر ، فكلم بالحري ان اقرأ او اكتب . اتذكر شيئا ما جيلا ، لكن ما هو على وجه الدقة . لست اعرف .

يخيل اليّ احيانا اني قد خلفت اولادا في وطني . صبورات صغيرات رائحة . لا بد انهم قد اصبحوا كبارا الآن . فاسيا يذهب الى المدرسة . المدرسة ، اقول ؟ لا بد انه قد اصبح شابا بالغاً قويا . لقد تخصص بالعلوم الهندسية . وماشا قد تزوجت . يا الهي ! يا الهي ! يبدو اني اتحول الى بشري !

لا ! ليس لهذا تحملت اثنتين وثلاثين سنة من العذاب ، ليس لهذا تمددت على سرير قاس بدون ماء في الشتاء الماضي . لماذا شفيت ، الا لسبب واحد ، هو انه حالما يصبح الطقس دافئا فاني ساختبىء في مكان ما هادىء واموت فيه من غير ان يثير موتي ضجة ؟ هذه هي الطريقة الوحيدة لاتمكن من الاحتفاظ بما تبقي مني .

كل شيء جاهز لرحيلي : تذكرة القطار الى اركوتسك ، صفيحة للماء ، مبلغ محترم من المال . فمعي تقاعدي كله تقريبا لفصل الشتاء في دفتر التوفير . ولم اصرف شيئا على معطف فرو ولا عربات الترام او حافلات الترولي . ولم اذهب مرة واحدة الى السينما خلال ذلك الوقت كله . وقد انقضت الآن اشهر ثلاثة منذ توقفت عن دفع ايجار . وبمجموع ما معي ١٦٥٧ روبلا .

بعد غد ، عندما يأوي كل واحد الى فراشه ، سأترك البيت بدون ان ينتبه لخروجي
احد ، وأخذ سيارة اجرة الى المحطة . وتزق صفارة القطار - واصبح لكم نسيا
منسيا . غابات ، غابات خضراء كجسد امي ، ستتقبلني فيها وستخبثني وتفتطيني .
سأصل اليها ، بطريقة او باخرى . سأستأجر قارباً ، لجزء من الطريق . المسافة حوالي
٣٥٠ كيلو مترا . وكلها عن طريق النهر . الماء الى جانبي مباشرة . اغس ذاتي فيه ثلاث
مرات كل يوم ، اذا طاب لي .

كانت ثمة حفرة . ساظل افتش حق اعثر عليها . حصلت نتيجة سقوطنا . سأضع
خشباً حولها من كل جانب . العرعر يشتعل كالبارود . سأستلقي في الحفرة ، وافك
الاربطة والاطواق عني ، وانتظر . ولن افكر فكرة بشرية واحدة ، ولن اسمع لفظة
واحدة بلغة غريبة .

وعندما تهطل الثلوج الاولى ، وادرك ان الوقت قد حان - سيكون عود واحد
من الثقب كافياً . ولن يتبقى مني شيء .

لكن ذلك الوقت ما يزال بعيداً جداً . ستأتي ليالٍ كثيرة دافئة وحلوة . وستلمع
نجوم عديدة في السماء في الصيف . اية منها ... من يدري ؟ سأحقد فيها جميعاً ، فيها
معا وفي كل بمفردها ، سأحقد فيها بعموني كلها . احداها نجمتي انا .

آه يا موطني ! «بُخَنَنْتُس ! غوغري توجروسكيب !» انا عائد اليك . «غوغري !
غوغري ! غوغري ! توجروسكيب ! توجروسكيب ! بونجور ! غوتينايندا !
توجروسكيب ! بو-بو-بو- ! مياو ، مياو ! بُخَنَنْتُس !»